تحديات العولمة
والنهوض باللغة العربية

إعداد : أ. فتحى الملا

تفرض الظروف العالمية الراهنة، والأحداث الجارية، وتوجهات عصر العولمة وتحدياته، ضرورة النظر فى وضع اللغة العربية، فى ضوء هذه المستجدات العالمية، باعتبار اللغة العربية لغة الدين الإسلامى الحنيف فلا تصح أداء الفرائض إلا بلسان عربى مبين، وهى إلى جانب ذلك، لغة التراث الحضارى، فهى بذلك اللغة العربية التى تمثل الرباط الوثيق بين أبناء هذه الأمة الإسلامية على اختلاف البلدان والثقافات، فضلاً عن دورها فى تحقيق التواصل والاستمرار اللغوى بين أبنائها، منذ أقدم نص مكتوب، حتى آخر ما أنتجه الحاسوب، والشبكة العالمية للمعلومات، فاللغة العربية انعكاس لحياة الأمة الإسلامية.. وضرورة ماسة لتماسكها ووحدتها وقوتها.

ولا مجال هنا للإفاضة فى أهمية اللغة فى صوغ الوجدان، وتوحيد الرؤى، وشحذ الهمم، واستنفار الطاقات..

ذلك أن مقتضيات الواقع الذى نلسمه الآن فى عالمنا المعاصر يؤكد أن الذين يتباعدون لغة، وتارخًا، وتراثًا، يتجمعون الآن فى اتحاد، ويحتشدون طلبًا للمصلحة، وتحقيقًا للقوة والمنعة.

وإذا كانت اللغة العربية، كما يقول العالم الجليل الدكتور شوقى ضيف رئيس المجمع اللغوى: «هى أقوى لغة عالمية فى التكيف مع الحضارات والثقافات، خرجت من جزيرة العرب على أيدى البدو، وإذا بها تتسع لحضارات العالم جميعًا، وتعد هى القائد للغات العالم وحضاراتهم لمدة ستة قرون من القرن الثانى الهجرى إلى القرن الثامن الهجرى، هذا الحضور العالمى للغة العربية، والتفاعل الحى مع الحضارات العالمية المعاصرة لنهضتها بعد ظهور الإسلام، قد أكد خصائص اللغة العربية ومقدرتها على أن تكون لغة عالمية..».

وها نحن الآن فى عصر العولمة الطاغية، تواجه لغتنا العربية تحديات شتى، لكنها تتصدى لهذه المواجهة وهى فى واقع يراها بعض علمائها: «لغة مهملة متخلفة لا تكاد تحيا بين أبنائها رغم ما تملكه من إمكانات ضخمة ووسائل متنوعة وأسباب متعددة تضمن لها البقاء والاستمرار... نعم صارت اللغة العربية بين أهلها، لغة يلفظها أبناؤها فى كل مجالات الحياة وينظرون إليها نظرة ازدراء وامتهان. ويتعالون عليها فى كل مناسبة وبغير مناسبة، لغة لا يخجل من الخطأ فيها كبير أو صغير، ولا يسعى لإتقانها إنسان ولا يعبأ أن يجيدها مثقف».

وكما يقولون، فالتاريخ يعيد نفسه، فقد واجهت لغتنا العربية على امتداد تاريخها مواقف مماثلة، وأزمات مختلفة، وتحديات متباينة وصراعات شتى.

فالصراع الحضارى الدائر الآن ومحاولة العولمة الدءوبة والمستميتة، السيطرة على المجتمعات والتسلط على الثقافات، وفرض الهيمنة.. يعيد إلى الأذهان نفس الموقف الذى واجهته لغتنا العربية من قبل فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. حين احتل الاستعمار شرق الوطن العربى وغربه، وفرض لغته وأغرى بها الجماهير، وجعل إجادتها شرطًا من شروط الحصول على لقمة العيش، فاضطرهم إلى تعلمها، وجعلها لغة أبناء الصفوة وأهل الحظوة..

فقد فرض الإنجليز التعليم باللغة الإنجليزية فى مصر منذ المرحلة الابتدائية عام ١٨٨٩ أى بعد سنوات سبع أو سبعة ـ كلاهما صواب ـ من احتلاله مصر عام ١٨٨٢م.

إلا أن نواب الأمة استجمعوا شجاعتهم، واستثاروا حميتهم، واستنفروا طاقاتهم، وطالبوا فى عام ١٩٠٧م بعودة التعليم إلى اللغة العربية منذ مراحل التعليم الابتدائى ورفض التعليم باللغة الإنجليزية فى هذه المراحل الباكرة من التعليم..

ومن الأسف، أن سعد باشا زغلول وكان ناظر المعارف وقتئذ، ينبرى لتسفيه الفكرة الوطنية: ويقول : لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة أو البنوك والشركات الأجنبية.. (عمر الدسوقى ـ الأدب الحديث).

ويزداد أسفنا، ونحن نسجل هنا أن ما رفضه الوطنيون المصريون عام ١٩٠٧، يتهافت عليه التربويون العرب فى السنوات الأخيرة ويسوغونه، وهو الدعوة إلى تعليم الأطفال اللغة الأجنبية، دونما نظر للمحاذير الدينية والقومية التى تراعيها معظم الدول المتقدمة الآن لحماية ألسنة أبنائها من أثر اللغات الأجنبية فى مرحلة الطفولة.

وتزداد الحرف الضروس ضراوة، ضد اللغة العربية، فى صور شتى وأشكال متباينة، إذ تتعالى على يد الإنجليز الدعوة إلى إعلاء اللهجة العامية، واتخاذها لغة للثقافة والإعلام على يد الإنجليزى ويلكوكس ووليمور وإسكندر المعلوف السورى، الذى دعا المصريين إلى ترك الفصحى إلى العامية، مع البدء بتحول الإعلام المقروء من صحف ومجلات إلى اللهجة العامية ونبذ الفصحى وحصرها فى ثنايا الفصل بل فى حصة اللغة العربية وحدها.

وتوالت الدعوات إلى العامية، خافتة حينًا وصاخبة أحيانًا، بدافع شعوبى، للنيل من لغة القرآن الكريم، لتجد هذه الدعوات الضالة من يدعمها من أبناء العروبة والإسلام، ليكونوا عونًا لأعدائها، ويصدق فيهم قول شاعرنا الحكيم:

وأعرق خلق الله فى الذل أمة تضام، ومنها للذى ضامها جند

واستمر خصوم العربية فى الكيد لها، والنيل منها، وظلت اللغة العربية الفصحى، تخنق فى بعض وسائل الإعلام عمداً مع سبق الإصرار، كأن الإعلام وإن كان يقدم ألوانًا من الفصحى فى نشرات الأخبار إلا أن أكثر برامجه ومسلسلاته تطمس الفصحى وتهدد النطق الصحيح للحروف العربية وتغرى

بالعامى المشاهدين والمستمعين، مما يوحى أن العاملين بالإعلام كأنهم على عداوة راسخة مع العربية..

وإذا كان عصر القنوات الفضائية العربية والإنترنت أتاح الوصول باللغة العربية، إلى آفاق العالم شرقه وغربه وإلى بيئات أجنبية، وعربية إسلامية، وغير إسلامية مترامية فى أقطار الدنيا، فإن الحاجة إلى النهوض بالفصحى تبدو ماسة أكثر من أى وقت مضى، لأن اللهجات العامية المتعددة بتعدد أقطارها، فى بعض هذه القنوات الفضائية العربية، يتعذر فهمها فى هذه البيئات وإنما تفهم اللغة العربية الفصحى وحدها، التى يجب أن يتوحد الخطاب الإسلامى والعربى بها.. لنشر ثقافتنا والتعبير عن ذاتيتنا العربية وتأكيد هويتنا الإسلامية.

إن الواقع المتردى الذى تعيشه اللغة العربية منذ مطلع القرن الماضى، لم يكن بفعل فاعل أجنبى كالاستعمار وحده، وإنما شارك فى تعميق هذا الواقع المؤسف، تنكر أصحاب القرار للغة العربية، وفتنتهم باللغات الأجنبية وثقافتها وقيم مجتمعاتها، فضلاً عن الغفلة بأهمية الفصحى ودورها وفعاليتها، باعتبارها أقوى خيط فى نسيج هذه الأمة المسلمة.. هذه الغفلة، وقد طمست عقول علماء الأمة الإسلامية، وران على قلوبهم، فلم يبصروا طريقهم بين الأمم، ولا نهضوا بمسؤلياتهم تجاه دينهم ولغتهم وحضارتهم التى لم يقدروها حق قدرها.

لقد لوحظ أنه فى فترات الدعوة إلى القومية العربية والوحدة السياسية بين الأقطار العربية أن سقطت سهواً أو أسقطت عمداً، غابت العربية عن أن تكون ضمن الخطط والإستراتيجيات المعدة لهذه الوحدة..

ولذلك فإنه من المؤسف أن يدخل العرب والمسلمون الآن، عصر العولمة، ذى الصراعات الحاسمة، والقوى المتكالبة الباطلة لا عزلاً من الأسلحة المادية وحسب، وإنما عزلاً من الأسلحة المعنوية وأهمها سلاح الثقافة الذى يستمد قوة تأثيره من اللغة الفصحى الموحدة وهى خط الدفاع الأول عن الهوية العربية والإسلامية.

إن الأجواء القديمة التى اجتاحت الأمة العربية فى ظل الاستعمار، والاحتلال العسكرى المباشر، تطل الآن برأسها فى عصر العولمة، متمثلة فى التوجهات المعلنة والصريحة للسيطرة على الفكر العربى، واحتلال وغزو للعقول العربية والإسلامية، وهو ما لا يقل ضراوة عن الاحتلال الغربى السابق، وإن اختلفت الوسائل.. إن الهدف واحد، وهذه دعاوى العولمة، والقرية الكونية الصغيرة، تشيع الآن فكرًا غريبًا، وجد طريقه إلى عقول بعض المفكرين العرب والمسلمون فأصبحت اللغة الأجنبية لدى بعض المنظرين للتعليم والثقافة فى عالمنا الإسلامى مطلبًا وطنيًا يزاحم اللغة العربية الفصيحة فى عقر دارها.. وأصبحت العامية مطلبًا مقبولا ثقافيًا فى أوساط الأدب، فالشعر عامى والقصيدة عامية والفصحى تكاد تكون مستبعدة فى كثير من المجالات. وفى هذا الإطار نلحظ، أن وزير الثقافة والتعليم اللبنانى، يصدر فى سبتمبر عام ١٩٩٧ تعميمًا للجامعات، طالبًا تدريس الزجل لاعتباره ديوانًا لبنانيًا كالشعر العربى سواء بسواء.

وفى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، تتسع المساحة للأدب الشعبى العامى، ويحتل فى برامج الدراسة، ساعات أطول من ذى قبل، على حساب الوقت المخصص للثقافة العربية الفصيحة..

إن التهديد بأخطار العولمة، والهيمنة الغربية، والاستلاب الثقافى، والتبعية السياسية، والاقتصادية، وتوجه العالم إلى تكتلات كالسوق الأوروبية المشتركة، والاتحاد الأوروبى، والتقنيات الإلكترونية، التى ضاعفت من التأثير الأجنبى.. كل ذلك يجب أن يضعه المسئولون عن اللغة العربية بالجامعات نصب أعينهم.. ومحل أنظارهم.. وهذا هو دور رابطة الجامعات الإسلامية.

إن الأخطار المحدقة والمتسارعة التى تفرضها تحديات العولمة لا بد أن تشحذ همم الجامعات، إلى اليقظة، لما يحاك لثقافتنا الإسلامية، ولغتنا العربية الفصحى، من غزو ثقافى فضائى.. وإذا كانت رابطة الجامعات الإسلامية تمثل

فى جانب من رسالتها، تكتلاً جامعيًا يضم صفوة العلماء والباحثين، فإن الأمل كبيرفى أن تنهض الرابطة بهذه المسئولية وأن تتولى مهمة التخطيط للأولويات ولما هو آجل وعاجل من إستراتيجيات للنهوض باللغة العربية نهضة تدعم كيانها، وتعيد لها عافيتها، وتسترد بها موصول تاريخها الحضارى العريق. وهنا نطرح بعض الأفكار فى هذا المجال:

أولا: إن النهوض باللغة العربية مسئولية ضخمة، وأمانة دينية لا مناص من مواجهتها الآن وليس غداً..

وإذا كانت دساتير الدول الإسلامية كلها، تحض على أن اللغة العربية هى اللغة الرسمية، فما هى الإجراءات التى تتخذها الدول وأين هى، والقوانين التى تسن لمعاقبة الخارجين على هذا النص الدستورى؟

فى الكونجرس الأمريكى صاح أحدهم: إن الدولة تشرع القوانين لمعاقبة اللصوص والقتلة.. فأين هى القوانين التى تعاقب الخارجين على قواعد اللغة، لماذا لا نعاقب الذين يفسدون اللغة ويتهاونون بمقدساتها؟

هل نحن فى حاجة لمثل هذا العضو الأمريكى، لينبهنا إلى ما غفلنا عنه زمنًا، مما أدى بالعربية إلى هذا التردى المتفاقم وإلى أن تنحدر اللغة العربية من عليائها، ولا يقدر معلموها وأساتذتها على ضبط ألسنتهم وأقلامهم، والتحدث بها بلا أخطاء..

نحن بحاجة إلى تشريعات رسمية تقترحها رابطة الجامعات الإسلامية، وفيها من أعلام القانون كفاءات غيورة مخلصة.. نريد تشريعات رسمية وأنظمة قانونية، تحمى اللغة العربية الفصحى وتصونها من العبث، ومزاحمة اللغات الأجنبية لها فى الإعلانات واللافتات وشاشات التلفزيون وبرامج الإذاعة.

ولسنا بدعًا فى هذا فاللغة الفرنسية صدر لها قانون عام ١٩٧٥ يوقع غرامات على مخالفى اللغة، وكذلك أصدرت رأس الخيمة قراراً مماثلاً،

بغرامات للكلمات الخطأ فى اللافتات والإعلانات تحريًا للفصحى والتزامًا بها.

ثانيًا: نريد إلى جانب هذه التشريعات، حملات ترويجية للفصحى، دعاية وإعلانا لها، لإثارة الشعور القومى العام، نحو الاعتزاز بالفصحى.

وليس هذا بغريب فأهل أيرلندا نفذوا حملة عام ١٩٧٨ تحت شعار «لغتنا جزء من كياننا..».

كم نحن بحاجة إلى رفع مثل هذا الشعار.. لغتنا جزء من كياننا.

وفى إندونسيا يصفون شهر أكتوبر من كل عام بأنه «شهر اللغة القومية»، وفى سنغافورة حملة دعائية للغة الماندرين وهى اللغة الصينية لبكين.

نريد من هذه الحملات أن تعزز ثقتنا فى أنفسنا وهذا ما نفتقده فعلاً.. هل يعلم شبابنا أن اللغة الإنجليزية تضم ١٢٦٠ كلمة قرآنية؟ وكذلك سائر اللغات الحية كالأسبانية والإيطالية وغيرها، نريد مزيداً من الحب والتقدير والاعتزاز بلغتنا العربية التى اختارها الله ـ سبحانه وتعالى ـ من بين اللغات لتبليغ رسالته إلى العالم حتى تقوم الساعة.. «إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون».. وقوله ـ سبحانه ـ «بلسان عربى مبين».. وقول رسولنا الكريم ﷺ:«أحب العربية لثلاث: لأنى عربى ، والقرآن عربى، ولسان أهل الجنة فى الجنة عربى». ألا تستحق العربية أن نجلها اقتداء برسولنا الكريم؟؟

ثالثًا: إن الإفادة الحقيقة من تقنية الحواسب الآلية، ما ينتج عنها من علوم، لا تؤتى أكلها، إلا إذا قمنا بتعريب هذه التقنية، وتوطينها فى العالم الإسلامى كما تفعل كثير من دول العالم الآن.

نريد أن نتعامل مع عصر المعلوماتية، من منظور عربى، ولغة عربية فصيحة موحدة ومنضبطة سهلة وميسورة، محببة إلى القلوب والعقول.

نريد العربية الفصحى، لغة موحدة فى مصطلحات علومها، وفى ترجماتها، وفى تعاملها مع العلوم الحديثة، لغة، يجب أن نبدأ فنجرى عليها البحوث، ونطوعها لهذه التقنية العالمية الجديدة.

إن رابطة الجامعات الإسلامية، مسئولة عن إشاعة فكر جديد متكامل واع، للنهوض باللغة العربية، نهضة تقيلها من عثراتها، وتنفخ فى روحها بعثًا جديدًا، تستعيد بها حضاراتها، وتواصل ما انقطع من مسيرتها العالمية..

إن فوائد عديدة، يجنيها الإنسان العربى المسلم، لو تطورت برامج الترجمة الآلية لنقل العلوم والمعارف العالمية من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، وهو الدور الذى قام به أجدادنا حين ترجموا علوم اليونان وحضارتهم إلى العربية، فكان ذلك هو المقدمة الطبيعية لنشأة الحضارة الإسلامية المعطاءة.. فهل آن لجامعاتنا أن تواصل هذه المسيرة الحضارية؟

ما هى دلالات ذلك وما مقتضياته، ومسئولياته التى تقع على كاهلنا جميعًا..

رابعًا: نريد من الجامعات الإسلامية، أن تقدم للعالم كله، صورة دقيقة وموضوعية تعبر عن عطاء اللغة العربية للعالم.. كيف أضاءت العربية ظلمات الجهل فى أوروبا الغارقة فى دياجير الظلام، بكتب عربية اللغة، إسلامية الفكر، عالمية العطاء.

نريد أن نعيد للأذهان، كيف كان رجالها من كل الأجناس يلتقون فى دار الحكمة وهى بمثابة الجامعة الآن، يلتقون فى ود وتعاون ومحبة دون تعال أو كبرياء، لا يسرقون بحوثًا لغيرهم وينسبونها لأنفسهم، متجردين للحقيقة والعلم وحدهما، شعارهم دائمًا رب زدنى علمًا فاستحقوا الخلود.

خامسًا: نريد من الجامعات الإسلامية، أن تكشف لنا فى ضوء علوم اللغة، جوهر هذه اللغة العربية المتميزة، وخصائصها الذاتية العريقة، وقدرتها الفذة على أن تعطى للعالم بسخاء.. وأن تقهر ما عداها من لغات.. هذه الخصائص الفريدة للغة العربية هى التى تفسر لماذا مكث اليونان فى مصر ولم تنتشر فيها اللغة اليونانية.

ومكث الرومان فى تونس ولم تنتشر فيها اللغة اللاتينية.

أما العربية حيث دخلت مصر وتونس وغيرهما، انتشرت وبقيت وشاعت..

سادسًا: نريد من رابطة الجامعات الإسلامية وفى هذه الظروف الراهنة التى يحاول الغرب فيها الانتقاص من حضارتنا الإسلامية، أن تنهض الجامعات الإسلامية، بمسئولية كبيرة فى لفت نظر أعداء هذه الحضارة الإسلامية، إلى أن ما ينعمون به من حضارة علمية معاصرة، قد بنيت على أساس عربى لغة وعلمًا، فالصفر ـ وهو أقل الأشياء قيمة ـ كان أعظم هدية أهداها العرب لأوروبا.. حين كان الغربيون حتى القرن الثانى عشر الميلادى، لا يعلمون من أمر هذا الصفر شيئًا.

سابعًا: إن الجامعات الإسلامية مطالبة بأن، تعلم شبابها، ما قاله أعداء العرب عنها، من أمثال الفيلسوف الفرنسى رينان فى محاضرة له عن «الإسلام والعالم» قال رينان فى صراحة يحسد عليها:

«إن ترجمة الكتب العربية علمت أوروبا ما لم تعلمه، وفتقت أذهاننا، وفى الوقت الذى توفى فيه ابن رشد آخر فلاسفة العرب بالأندلس، حزينًا منسيًا، كانت أوروبا آخذة بجد فى اكتساب العلوم والفلسفة عنه، وبذلك وجدت أوروبا ما يلائمها عند العرب فشرعت فى التقدم. وفى الانقلاب العجيب الذى كان مآله إنقاذ العقل الإنسانى من كل حاجب، لقد نقلنا الكتب العربية المهمة إلى اللغة اللاتينية ودرست هذه المؤلفات فى جامعة باريس، وخرجت بها بلادنا من الجهل الذى كانت عليه منذ خمسمائة سنة وكنا لا نزال حتى ذلك التاريخ ـ نحن أهالى أوروبا ـ تلامذة العرب».

نريد من الجامعات الإسلامية أن تعمق هذا الفهم الصحيح لحقيقة اللغة العربية والرسالة الحضارية التى نشرتها فى العالم كله، ولا يزال العالم حتى اليوم يستضىء بأنوارها، وإن كان يبدو جاحدًا فضلها، منكرًا عطاءها.

ولنستمع مرة أخرى إلى ما يقوله رينان العالم الفرنسى الذى يعتبر من أشد أعداء العرب:

«جائز أن يقال إننا معشر الأوروبيين بلغنا درجة العرب فى الحضارة والتقدم بعد نصف قرن من ترجمة كتبهم، أى فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى، بل يجوز أن يقال إننا وصلنا درجتهم فى عام ١٢٧٥ ميلادية فى حين كانوا هم واقفين عن التقدم، وبينما كان ابن رشد مشهوراً عندنا شهرة أرسطو كان بين إخوانه من العرب متركًا فى زوايا النسيان حتى أنه منذ سنة ١٢٠٠م لم يظهر بين العرب فيلسوف عربى واحد».

يقول رينان:

لم يظهر بين العرب فيلسوف عربى واحد من ١٢٠٠م .

هل تستطيع جامعاتنا أن تجيب على هذا السؤال:

لماذا لم يظهر بين العرب والمسلمين فيلسوف عربى واحد منذ عام ١٢٠٠؟!. رغم يسر المعيشة، وتدفق الأموال وتحسن الأحوال، وتوافر المكتبات فى جامعاتنا.. ولماذا لم يظهر عالم فى حجم ابن رشد أو الفارابى، وابن سينا، والبيرونى، والإدريسى والخوارزمى؟؟

لماذا لم يظهر فى جامعاتنا عالم فى اللغة العربية فى حجم ابن منظور وسيبويه والخليل ؟!!

هل أجدبت القرائح العربية؟ ألسنا أحفادًا لخير أجداد أضاءوا العالم بنور بصائرهم، وأمدوه بثمرات قرائحهم؟؟

إننى هنا أستعير قول الإيطالى بترارك حين صاح فى وجه الطليان الذين استكانوا لسيطرة اللغة العربية التى انتشرت فى بلادهم: قال بترارك فى أسى مرير:

واعجبًا لقد استطاع شيشرون أن يكون خطيبًا بعد ديموستين، وأبدع فرجيل بعد هوميروس، فهل قدر علينا ألا نبدع بعد العرب؟ فيا للحماقة ويا للخيبة، ويا للعبقرية إيطاليا الخامدة..

وأردد سطره الأخير، أوجهه لجامعاتنا العريقة: **هل قدر علينا ألا نبدع بعد العرب؟ فيا للحماقة ويا للخيبة ويا لعبقريتنا الخامدة! !.**

وإذا تركنا الفرنسى رينان والإيطالى بترارك اللذين أشادا بحضارتنا الإسلامية، ننتقل إلى أسبانيا.

وهنا صيحة مماثلة للأسقف الأسبانى فى قرطبة بعد أن فتحها العرب فقد اكتسحت اللغة العربية آنئذ اللغات المنتشرة فى أسبانيا.. يقول الأسقف الأسبانى فى حسرة:

«وا أسفاه الشبان الأسبانيون ينسون لغتهم اللاتينية، لم نعد نجد بين الآلاف منا واحد يستطيع كتابة رسالة إلى صديق بلغة لاتينية مقبولة. الشباب الأسبانى بدأوا يتنكرون للغتهم الأصلية، ويقبلون على تعلم اللغة الدخيلة ألا وهى اللغة العربية.. عجبًا لهذه اللغة العربية التى تجذب الشباب الأسبانى إليها.. من يقرأ الشروح اللاتينية للأناجيل؟ ما سر العربية الذى يجعل الشباب الأسبانى ينفق الأموال الضخمة فى جمع الكتب العربية وقراءة الأدب العربى؟!».

انتهى كلام الأسقف الأسبانى .. ولا يزال سؤاله قائمًا:

ما سر العربية الذى يجعل الشباب الأسبانى ينفق الأموال الضخمة فى جمع الكتب العربية وقراءة الأدب العربى؟!

هل تجيب جامعاتنا ؟ هل تجيب كليات اللغة العربية بالأزهر وأقسام اللغة العربية ودار العلوم؟

فى الشهر الماضى يقول وزير خارجية شيلى للعرب: إنكم أمة عظيمة، أعظم كثيرًا مما تتصورون أو تعرفون.

وهنا لا بد من المكاشفة والمصارحة.. إن جامعاتنا على كثرتها ووفرة ما تمنحه من شهادات الماجستير والدكتوراه فى اللغة العربية، لم تستطع حتى الآن أن تخدم هذه اللغة العربية العظيمة لا تعليمًا ولا بحثًا.

إننا مطالبون بمواجهة صريحة لعيوبنا ، لننقد ذواتنا، نقدًا موضوعيًا مجردًا من الهوى، نقدًا لاذعًا وإن كان مؤلمًا..

إن صيحة حافظ إبراهيم بلسان اللغة العربية كانت منذ عام ١٩٠٣ مطلع القرن الماضى، ولم تكن جامعاتنا الحديثة قد ظهرت بعد الوجود هذه الصيحة بكل معانيها لا تزال قائمة بنصها ولفظها فلنسمع صيحة حافظ إبراهيم فى قوله:

أرى كل يومًا بالجرائد مزلقًا ... من القبر يدنينى بغير أناة
وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظاتَ
فكيف أضيق اليوم عن وصف ... آلة وتنسيق أسماء لمُخترعاتَ
أيتركنى قومى عفا الله عنهم ... إلى لغة لم تتصل برواة؟
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى؟

هذه الصيحة بنصها وبكلماتها، لا تزال قائمة تطرق أسماعنا، وتذكرنا بجمودنا، ونكوصنا، وتقاعسنا، نعم تقاعسنا، ولا خير فينا إن لم نقلها.. لقد فشلنا ـ فى الجامعات ـ نعم فشلنا فى أن نحل مشكلة واحدة من مشاكل اللغة العربية..

صحيح أننا نظمنا مؤتمرات عدة، وأقمنا ندوات لا حصر لها، وأعددنا حلقات نقاشية لا تحصى، ونظمنا سجلاً ضخمًا من التوصيات تحتفظ به رابطة الجامعات الإسلامية، وقد أحسنت رابطة الجامعات صنعًا بجمع هذه التوصيات العديدة فى مجلد واحد، لتوثيق هذه التوصيات.. ولكننا اكتفينا للأسف بإصدار هذه التوصيات وتنميقها.. ولم نخط خطوة عملية واحدة نحو النهوض باللغة العربية فبقيت اللغة تنحدر وتتردى ونحن غافلون أو متغافلون أو متكاسلون..

إننا مطالبون، بالاكتفاء بما صدر من توصيات، والإقلاع عن عادة أراها ذميمة، وهى إصدار التوصيات دون نظر أو تدقيق فيما سبق أن صدر منها... وكأن التوصيات غاية فى حد ذاتها.. وليست وسيلة للإصلاح، أو خطوة مبدئية للانطلاق والعمل ولنسأل أنفسنا بصراحة وشجاعة ماذا نريد من النهوض بالعربية؟؟

وأنا أجيب بكلمات محدودة نريدها لغة حضارة، ولغة علم، ولغة حياة، ولغة تواصل، ولغة فكر..

لقد وقف المرحوم أحمد حسن الزيات فى إحدى جلسات مجمعنا اللغوى الموقر يعبر عن هذا المعنى بقوله:

«واعجبًا لقد استطاعت لغتنا العربية منذ أربعة عشر قرنًا، أن تصف ناقة طرفة بن العبد، جزءًا جزءًا فى ثلاثين بيتًا من الشعر.. ولكنها الآن تقف أمام سيارة فورد، صماء بكماء بلهاء تشير ولا تسمى...».

وشرح أسباب العلة والآفة التى أصابت لغتنا العربية بقوله:

«إن أدبنا العربى على سعته وجماله فوضى.. فلا حدوده مرسومة ولا مناهجه معلومة ولا قواعده ثابتة.. فنحوه، أصداء مبهمة للهجات القبائل العربية الجاهلية..

ولا يكاد يتفق النحاة على وجه من وجوه الإعراب حتى ليوشك أن يكون كل كلام صوابًا وكل كلام خطأ.

والسبب فى ذلك فى رأى الزيات: «أن أدبنا العربى لم يكن أدب أمة واحدة، ولا مظهر ثقافة واحدة، ولا محصول لسان واحد، إنما هو أدب الأمم المختلفة التى امتزجت فى الأمة الإسلامية فى العصر العباسى فهو أشبه بالحبر لكل نهر فيه مصب».

ويقول الزيات معالجًا هذا الوضع:

الحال تنادى بإعادة النظر فى علوم الأدب وفنون الإنشاء فيصلح الفاسد ويتم الناقص فتتسع لغتنا العربية لأغراض الحياة، ومطالب العصر.

ثامنًا: إن قضية النهوض باللغة العربية، لا ينبغى أن تكون أولوياتها ـ فى نظرنا ـ تعليم العربية للناطقين أو لغير الناطقين بها... إن معنى ذلك أننا نصدر اللغة العربية كما هى فى واقعها الآن، للآخرين.. والتصدير فى حد ذاته، هدف لا غبار عليه، ولكن يسبقه بطبيعة الحال تفهم وتدقيق فى المادة التى نصدرها..

أى لغة عربية سنصدرها؟ لا بد أولا من معالجة قضايا اللغة العربية ذاتها، قبل تصديرها للآخرين لأنها حينئذ ستكون فى منافسة مع غيرها من اللغات فلا بد من تيسيرها وإصلاحها وتأهيلها لهذه المنافسة..

الأولوية فى النهوض باللغة العربية تكمن فى عدة نقاط منها:

(١) البدء بتحليل التوصيات السابقة الصادرة عن كافة المؤتمرات والندوات لتكرارها والاستفادة منها.

(٢) الاهتمام بجوانب البحث العلمى اللغوى إلى جانب التربوى والتعليمى، فيما يتعلق باللغة العربية وعلومها ويشمل ذلك:

(أ) الدراسة والبحث والتنقيب عن الألفاظ الفصيحة الشائعة فى لغتنا العامة والتى يحجم الكثيرون عن استعمالها ظنًا من أنها عامية وهى فصيحة فعلاً، مثل كلمات : جوعان/ شبعان/ عطشان/ زعق/ حظ / شاف/ زرر/ بص ، ولا بد من إدراج هذه الألفاظ السهلة الفصيحة فى الكتب المدرسية وفى الإعلام ليألفها الناس ويستعملونها بلا تردد.

(ب) توجيه أقسام اللغة العربية إلى النزول إلى الأسواق والمتاجر ومحلات الحرفيين وتسجيل صوتى للغة الشارع والمصنع وتحليل هذه الألفاظ وبيان ما له علاقة بالفصحى وما ليس له، فيمكن إفساح المجال له وبذلك تتسع الفصحى لتكون لغة الحياة اليومية، ولغة التعامل بين الناس على اختلاف طوائفهم..

وذلك باعتبار أن اللغة ملك لنا، كما يقول طه حسين:

«لغتنا العربية يسر لا عسر، ونحن نملكها، كما كان القدماء يملكونها، ولنا أن نضيف إليها ما نحتاج إليه من ألفاظ لم تكن مستعملة فى العصر القديم»، فحق وضع ألفاظ جديدة حق مطلق للفرد والمجتمع.

(جـ) توحيد جهود الترجمة والتعريب بين الجامعات والمجامع اللغوية العديدة بحيث يكون هناك تنسيق شامل بين هذه الجهود.

(د) توحيد الأرقام العربية بين الدول العربية وحسم الخلاف حولها، بحيث

تكون هذه الأرقام العربية هى المستعملة على نطاق الأمة الإسلامية كلها استهدافًا لوحدة الفكر والثقافة فى الصحافة وغيرها.

(هـ) توحيد أسماء الشهور العربية الإسلامية وفرض تداولها، وتعميم استعمالها بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه.

(و) متابعة ألفاظ الحضارة التى تفد صباح مساء وكيفية ملاحقتها، ووضع المسميات العربية الفصيحة لها إن أمكن.

(ز) تيسير قواعد اللغة العربية نحواً وصرفًا، فيكفى ما قاله رئيس المجمع اللغوى بالقاهرة عنه من أن النحو العربى أكثره فاسد، فقواعده جافة صارمة وتقسيماته فلسفية مجردة، لا سبيل إلى إجادتها إلا بالحفظ والتلقين دون أن تخلق سليقة أو ذوقًا، وقول الدكتور طه حسين ـ رحمه الله ـ : النحو العربى ضعيف فى أكثر مسائله.

(حـ) حل مشكلة كتابة الأسماء بين الدول العربية، إذ إن بعضًا منها يضع كلمة (ابن) بين كل اسمين.. فلان بن فلان وظل المجمع يناقش هذه المسألة عشرين عامًا دون أن يصل بها إلى قرار .

(ط) توحيد المسميات الثقافية والتعليمية والإدارية بين الجامعات ووزارات التربية والتعليم بل وبين مختلف الوزارات العربية والإسلامية إذ إنهم يقولون: الفحوص، الامتحانات، الاختبارات وكلها مترادفات، ويقولون: مراتب النجاح وآخرون : تقديرات النجاح، ويقولون : الصف ، وآخرون يقولون الفصل.

(ى) فتح باب الاجتهاد فى اللغة وتوسعة منافذها وروافدها وذلك باتخاذ الخطوات التالية:

١- فتح باب الوضع للمحدثين بالاشتقاق والارتجال.

٢- إطلاق القياس ليشمل كل ما قيس من قبل وما لم يقس.

٣- تحرير السماع من قيود الزمان والمكان.

٤- الاعتداد بالألفاظ المولدة وتسويتها بالألفاظ المأثورة عند القدماء.

٥- ربط تعليم اللغة العربية بالقرآن الكريم منذ المراحل الأولى للدراسة للتعود على النطق الصحيح لمخارج الألفاظ من خلال المعامل الصوتية.

٦- إلزام وزارة التربية والتعليم (بالشكل) لجميع كتب المراحل السابقة على الجامعة بلا استثناء وأجهزة الكومبيوتر تيسر الآن هذه المهمة.

٧- الربط بين الجامعات ووزارات التربية والتعليم والمجامع اللغوية والإعلام والثقافة من خلال لجنة عليا تضع الخطط والبرامج وتتابع التنفيذ، حتى تتناسق الجهود، وتتسق الخطى؛ لأن ما تنهض به جهة من هذه الجهات قد تفسده أخرى، فأجهزة الإعلام مثلا بطريقة نطق بعض المذيعات للطاء والثاء وغيرها وبعاميتها المتفشية فى المسلسلات والأفلام والإعلانات يمكن أن تؤثر، سلبًا على كل الجهود التعليمية.

وأخيرًا : فنحن بحاجة إلى وضع خطط عملية قابلة للتنفيذ ولا أقول توصيات تؤثر، فقد سئمنا هذا اللفظ، لكثرة تردده حتى صار معوقًا للعمل، نحن بحاجة إلى خطة عمل ومتابعة لتنفيذ ما يمكن من هذه الرؤى، حتى نستطيع أن ننهض باللغة العربية نهضة تحصنها وتقيلها من عثراتها وتدعم كيانها فى مواجهة تيارات العولمة وتحدياتها، وتأخذ بيدها من الواقع المتردى إلى الغد المأمول الذى يعيد لها مجدها وعزتها... لأنها لغة عزيزة بعزة الإسلام ولأنها لغة الذكر الحكيم..

يقول الإمام الشافعى عن العربية: على كل مسلم أن يتعلم من لسان العربى ما بلغه جهده، حتى يشهد به لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويتلو به كتاب الله وينطق بالذكر.

ويقول ابن تيمية: نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وليس أدل على ذلك مما ذكره أحد علماء المسلمين الذين زاروا باكستان منذ سنوات فرآهم يقرأون القرآن قراءة خاطئة، أدت إلى معانى غاية فى الخطورة فهم يقرأون :«إنما أنا بشر مثلكم».. يقرأونها هكذا «إن ما أنا بشر مثلكم» فإن توكيد لما بعدها وهو «ما أنا بشر مثلكم» ولذلك يقولون إن النبى محمداً ﷺ نور وليس بشراً.. غفر الله لهم ولنا..

وأضيف إلى هذا صرخة بنت عدنان أى العربية على لسان الشاعر المسيحى المهاجر زكى قنصل:

بدمعة اليأس غصت بنت عدنان ... روحى فدى قطرة من دمعها القانى
يا أهل ودى ـ والآمال تجمعنا ... هلا استجبتم لشكواها وأشجانى
تغربت معكم فى كل دسكرة ... ورافقت معيكم فى كل ميدان
لم يستطع مدفع الغازى ونقمته ... أن يهدما رغم طول العهد إيمانى
وسعت فلسفة اليونان فازدهرت ... حضارة الفرس فى حلقى وبستانى
وحين أظلمت الآفاق واضطربت ... فجرت أنوار إنجيلى وقرآنى
يا بنت عدنان إن الليل يعقبه ... مهما ادلهم ومهما طال فجران
إنى لأسمع عبر الأفق زغرودة ... فاستبشرى بغد يا بنت عدنان

والله الموفق ..